

من تاريخ الأدب الإنجليزي

الأدب القصصي في عهد الملكة اليزابث

١٥٥٨ - ١٦٠٣

للأديب مصطفى مشعل

مقدمة

تعتبر القصة منذ أقدم العصور فناً قائماً على قوة التخيل ، واستخلاص أفضل النتائج التي يحسن توجيه الشعب إليها ، وبث العقائد أو المثل العليا التي يدين بها للكاتب ومن المعروف أن أدب القصة هو الأدب الذي يتأثر به القارئ أكثر من تأثره بسواه ، وأنه الأدب المحبوب الذي يتذوقه المطالع تذوقاً شهماً دون ملل ، أو إرهاق فكري . فهو إذن أشد الآداب اتصالاً بالروح ، وتصويراً للشعور ، ووصفاً للبيئة ، ومعالجة للحياة في جميع أوضاعها ... فالقصة هي أحسن أدب يمثل الحياة .

ولاشك في أن للكاتب الروائي يستطيع - إن ملك القدرة على نسج الخيال بالحقيقة ، واستطاع سرد قصته دون أن يمل قارئه النجاح - بسهولة في جعل هذا القارئ يعيش ويحيا مع أبطال قصته ، فيفرح لفرحهم ويتألم لأنهم كأنهم أشخاص يعيشون على مسرح الحياة لا مسرح الخيال

ومن الحقائق المعروفة أيضاً عن الأدب القصصي أنه أداة فعالة في النفوس ، فتحن مثلاً إذا سمعنا قصة حياة شبيهة بحياتنا نشعر بفرح هائل يملك علينا إحساسنا ، إذ نرى في إحساسات غيرنا وشعوره صورة ناطقة لشعورنا وأحاسيسنا ، حتى ولو كان ذلك للشعور وهذا الإحساس أمراً شئياً أو أسفاً عليه ، فالطبيعة البشرية تجد في هذه المشاركة في الشعور والوحدة في الألم أمراً جديداً ، وشجاعة تواجه بها الأحداث والتأهب

أما إذا كان الوصف والتصوير الذي نطالعه هو وصفاً وتصويراً لحياة جديدة لا نعرفها ولا نحياها فسرعان ما نلصق

في نفوسنا حناناً لهذه الحياة متأثرين بما نقرأ عنها من وصف ... مشغوقين بما نتخيله عنها سواء كان هذا التخيل الذي يدفنا إليه الكاتب يتجه نحو النور أو الظلام ... نحو الفرح أو الحزن ؛ وهكذا ينمو ذلك التأثر وهذا التخيل حتى ندخل في حمأة الحياة الجديدة ونعيش فيها شاعرين بلذة لا توصف ، لأننا شاركنا أبطال القصة في حياتهم ، وفي فرحهم وترحمهم

ونحن نستنتج من هذا أن القصة الواقعية التي تصف حياة رجل أو امرأة وصفاً حقيقياً تفوز بمطقتنا وإعجابنا ، ولكننا سرعان ما نشعر بفتور يستولى علينا ، لأن أبغض شيء إلى المرء هو أن يرى آلام حياته تمثل أمامه أو تسرد عليه مرة أخرى .. إنه يكتب من ذلك أملاً ولكنه لا يكتب لذة ... وذلك لأن القصة الواقعية قد عدت في سطورها ذلك الشيء المجهول الذي نشعر به ولا نعرفه ، واللذة غير الأمل ... فاللذة التي يحسها القارئ لقصة مزجت فيها الحقيقة بالخيال البأوري هي تلك اللذة التي يحسها كل بشري عقب استطلاع شيء مجهول ... عقب الخوض في عالم جديد لا يعرفه ولم يحى فيه

ومن ذلك نرى أنه كان لزاماً على القصاص أن يخترع المواقف والمفاجآت التي يوحيا خياله ليضمن تتبع القارئ له تبعاً مستمراً غير منقطع ... وكان عليه أن يشوق القارئ إلى النهاية المحبوبة ، وأن يجعله يسجل القراءة محاولاً أن يصل إلى آخر مرحلة من مراحل هذا الخيال المترسل وإلى خاتمة هذه المفاجآت المتصلة ، لأنه - أي القارئ - لا يستطيع إدراك نهاية القصة ولا يستطيع أن يحزرها جزراً يقرب من الصواب ، لأنه لم يشعر ولم يتذوق مثل الحياة التي تصفها للقصة وتصورها

صاحب رولان (١)

كان هذان الرجلان هما أول من بذرا بذور هذا النوع الذي تحدثت عنه ، فاستقبله الكتاب الواقعيون بشيء غير قليل من اللفعة وللشفة والرغبة القوية في التقليد ، فزالوا يفكرون بين مترددين ومقدمين حتى جرفهم التيار فإذا بهم متلدون . وهكذا شاع وذاع هذا النوع السائق للسهل المنضم في المدة الأدبية ، وابتدأ الخيال يلعب دوره في القصة ويشتط شططاً كبيراً ويجمع جموحاً غريباً

(١) Charlemagne and Roland

من أراد منع هذا التقليد هو مؤدب الملكة روجر آشام Roger Acham ، فلقد أدرك روجر أن هؤلاء الذين يمجون كل عام إلى إيطاليا بحجة الدراسة إنما يرحلون دون نية أو مقصد حقيقي لذلك . فلقد كانوا يجتمعون هناك في مدرسة واسعة حيث كانت الآداب الإغريقية الرائجة تعتبر فيها مادة للفهم والتسلية ، إذ كانت تترجم إلى اللغة الإيطالية الدارجة بأسلوب وضيع ولغة فجة ، فتحولت عن مغزاها العالي الذي كتبت من أجله إلى أداة الاستهتار والتسلية ليس إلا . فأشار روجر إلى كل ذلك في كتاب ثقاني^(١) وضعه وحمل فيه على العقائد والمثل العليا في إيطاليا حملة شعواء ، وبين الأخطار الهائلة التي تمود على الأمة من جراء إرسال أبنائها وصفوة شبابها إلى بلاد لا يدين قومها بشيء ، بل هم ساخرون هازلون بالعقائد الإلهية والقوانين المرسلات ... ولكن الكتاب رغم ذلك كله لم يفل النجاح الذي قدره روجر له ولم يف بالنرض الذي أراده ، لأنه كتب بأسلوب علمي لا يشجع على القراءة ، وإن كان قد مهد به لبحث مسألة حيوية لجليل من الشباب .

كان روجر صادق لثنية في محاولة تحليل أمته من تأثير إيطاليا ، ولذا لم يرض هو نفسه عن كتابه هذا ... كان يريد كتاباً من نوع آخر ... كتاباً يقرأه الخاص والعام ، فيخرج منه متأراً منضماً لروجر في فكرته ، مؤيداً له في وجوب القضاء على هذه المادة ... ولكنه لا يستطيع كتابة هذا الكتاب لفلة فراغه وكثرة مشاغله ... فاذا يفعل ؟ ...

تذكر الشاب المغمور جون ليلى وعرف فيه القدرة على وضع الكتاب المذموم والبراعة في الوصف والتأثير على القارئ ، فأوحى إليه أن يضع قصة يبين فيها آفات المجتمع الإيطالي وخطره العظيم على شبيبة ناشئة والنتيجة السيئة لهؤلاء الذين يمشون في وسطه وما زال دم الشباب يجري في عروقهم حاراً عنيفاً ... وما زال بهم ظمأ شديد للعب والوثب ... وظمأ أشد للحب والمرأة ... وشفق لا يقاوم بحياة الليل السامة بين رنين الكؤوس وأصوات القبل . وكان ليلى عند حسن ظنه به قد درس المؤثرات التي يستهدف لها الفتى الإنجليزي في إيطاليا وبلادها وجملها موضوعاً لقصته العظيمة « يوفيس »

(١) اسم الكتاب : Scool Master

حتى اعتاده الناس وتقبلوه تقبلاً حسناً ولكن الكتاب أضعفوا فيه إيماناً شائناً مبعثراً ، فكان ذلك وبالاً على هذا النوع من القصة إذ تحول للقراء عنه . وهكذا راح يحبو ويندثر ليظهر على أعقاب نوع جديد من الأدب الذي كتب واصفاً بعض حوادث التاريخ القديم وسمى بالقصة^(٢)

قصة « يوفيس » لجون ليلى^(٢)

إذا أراد للكاتب أن يتحدث عن العصر الإنشائي ومخلفاته وأن يتكلم عن القصص الموفق الذي ظهر وأحدث ضجة كبيرة لما وجد أمامه إلقاء رائمة بل هو أروع آثار هذا العهد اطلاقاً من حيث قوة الفكرة وحسن الأسلوب ولما اشتملت عليه من مغزى كتب هذه القصة شاب نابي يدعى جون ليلى وكان اسمها « يوفيس » ، ونحن إن أردنا تحليل الأسباب والدوافع التي كانت سبباً في ظهور هذه القصة وتفوقها على كل ما عداها استطعنا ذلك بقليل من الاستنتاج . فالقصة لم تكتب جزافاً ولم يضمها صاحبها لمجرد الرغبة في الكتابة أو الشهرة ، بل إنه أراد بها مغزى عظيماً ، إذ حاول أن يظهر ويصف التأثير السيئ والانهطاط الخلق الذي كانت الحياة الاجتماعية في إيطاليا تؤثره في صغار الشباب الأنجلز النازحين إليها لتلقى العلم والمعرفة

لقد كانت إيطاليا في ذلك الوقت بلاد النور الخلاب بهانت عليها طلاب العلم ، وتفيض هي على العالم علماء وعرفاناً ، حتى لقد كان يحج إليها كل متعلم أراد أن يتم حظه من الثقافة أو يزيد نصيبه من العلم . واقتبست أنجلترا هذه المادة عن غيرها من الأمم منذ رحل إلى إيطاليا بعض المجددين من طلبة العلم الذين أظهروا نبوغاً في الأدب من أمثال : كوليت ولينا كروجر وكن لدراسة اللغة اللاتينية وآداب الإغريق الكلاسيكية التي كانت دراستها باعتباراً قوياً في نهضة أدب المسرح والقصة ... واستمرت هذه العادة عند الطبقة الراقية كتقليد لا بد منه لكل من أتم دراسته حتى بمد أن شرعت الجامعات الإنجليزية في تدريس هاتين المادتين ولم يكن جون ليلى هو أول من فطن إلى ذلك ، بل إن أول

(١) Novel

(٢) Euphuus. by John Lyly

ودعا فيها دعا إليه إلى دراسة الكتاب المقدس ليستوحوا منه المعطيات
ولكى يستطيعوا التغلب على نزعة الإلحاد التي كانت تنتشر
في إيطاليا بلد العلم والمرقان ا
وهكذا لم تلبث القصة أن ذاعت ذيوغاً عظيماً حتى لقد سارت
أحب الكتب الأدبية إلى الناس
كانت حديث الطبقات الراقية ... بل لقد تناقل الإعجاب بها
موظفو البلاط الملكي نفسه

على أنه مما ليس فيه شك أن هذه القصة لو لم يعرف مؤلفها
أدواء الجيل لما لقيت من هذا النجاح الفذ قليلاً أو كثيراً، بل لما
سمع عنها في هذا الوقت، فإنما قامت شهرتها على قوة أسلوبها وقوة
بصيرة مؤلفها وقدرته على معالجة الحوادث الخارجية التي كانت
تحيط بالناشئة، والتي كان الشعب يجملها رغم أنها كانت سائدة
بينه ... فبلى هذا الأساس المتين نالت القصة هذا المركز الفذ
الذي لا يداني في العهد الإليزابيثي كله

الأساليب القصصية

كانت الدراسة الطويلة للآداب الإيطالية وأساليبها من أقوى
المؤثرات في الأسلوب الذي ساد في هذا العصر ... لقد عني الكتاب
بالمظاهر في أسلوبهم أكثر مما عنيوا بالفكرة في كتاباتهم . ونحن
إذا تعمقنا قليلاً في الأساليب التي استعملت في هذا العهد وجدنا
فيها شيئاً غير قليل من محاولة للتلاعب بالفاظ وحروف اللغة
ومحاولة جعل أوائل أو أواخر الكلمات متشابهة في جرسها أو رتتها
الموسيقية كالسجع في اللغة العربية مثلاً
وقبل أن أنتقل بالتعاري إلى نوع آخر استعمل في الأسلوب
الإنجليزي لهذا العهد أحب أن أنقل هنا جملة من الأسلوب الذي
تحدثت عنه وهي من قصة « يوفيس » :

If I were as able to persuade thee to patience
as thou wert desirous to exhort me to piety.

أما النوع الآخر فقد سموه أسلوب التباين أو الموازنة المضادة
وأنا أنقل منه هنا بضع جمل لسهولة الفهم :

She was young and might have live, but she
was mortal and must have died.

كان اسم « يوفيس » اسماً مقتبساً عن الإغريقية، ولعل هذا
هو ما حدا به لأن يجعل بطل قصته شاباً من شباب أئتنا الفتوة
أنهى دراسته ثم رحل إلى إيطاليا للدراسة، وفي طريقه عرج على
« نابلي » وهناك التقى بأخر يدعى إيبوليس ... ولكن هذا الأخير
عاقل في بلدة أجدبت من العقلاء؛ فهو يتصح يوفيس، ولكن
يوفيس لا يتصح ... وهو يلوذ ولكنه لا يرعوى ... وهو يحاول
أن يفيدته والآخر لا يريد؛ فإذا ما مل نصحه وبثس من إصلاحه
صمت على مضض ... ولكن رغبته في إصلاح صديقه لا تلبث
أن تمود فيضرب على اللناحية الحساسة في نفس يوفيس قائلاً:
— أي يوفيس البائس ... اعمل لأجل الله ولا تعمل لأجل
نفسك، واجمل حبه لا حب البشر هو المسيطر عليك، واحذر
أن تغيبه منك، فإنك لو عملت له، وأخلصت لعدائه العظيمة،
باركك ورعاك، فإنه عادل يحب المخلصين

ولكن أتي للجاهل المرديد أن يثوب إلى رشده ويمود إلى
حظيرة الله ما دام الشيطان يعولف حوله ليسكب في أذنيه أغاني
الشر وأهازيج الغمارة

لقد انحط الأئني الشاب في زمرة الكسالي، وراح معهم
يعيشون في أحماء نابلي فساداً يبحثون عن اللذة أينما وجدت،
ويتذوقون كل محرم ويفخرون بما يأتونه كل يوم من ضروب
المجون والمبث

وتصل القصة إلى أكثر أجزائها شدة وقوة فيمهد ليلى
إلى ختم قصته ختاماً موقفاً حقاً إذ أرجع « يوفيس » إلى أئتنا ...
« رجلاً حزيناً عاقلاً » ... بل لقد جعل منه رجلاً آخر مخالفاً
لشخصيته الأولى ... لقد أدرك آلام الماضي وشروره فراح يكتب
الرسائل الطويلة إلى أصدقائه بأسطفاً فيها من الآراء الناصحة الكاملة
الشيء الكثير، شأن المعارف المدارس بأسرار الحياة

ولملك تستطيع أن تلمح من بين سطور القصة قوة المؤلف
الذي استطاع أن يصف ما أراد من نرق وجنون، وعبث ولهو،
ثم ندم واستغفار ... ووقار وحكمة

لقد أراد ليلى أن يجعل الناشئة تلمسك بأهداب الفضيلة
بأن أخذ يسرد عليهم سرداً قويا للتقاليد السيئة التبعة ليجتنبوها

وإليك جملة أخرى :

Thou shouldst not weep that she hath run fast,
but that thou hast gone so slow.

وتفويض كتابات هذا العصر بمثل هذا الأسلوب الأخير ، كما تفويض بالأسلوب الأول . وبقدر ما كان لهذه الأساليب من ميزة إن صح أن كان لها ميزة ، كان الشعور العميق والاختلاجات الحقيقية صعبة الإظهار ... صعبة البيان ... تحتاج إلى كثير جداً من المهارة والحسنة والتصرف والإلمام بكلمات اللغة ... وخلق المرادفات التي لا يعتنقها السمع ولا يذوقها الذوق ، وفي كل هذا من الإرهاق والجهد ما يفوت القصد الحقيقي على الكاتب ، بل ويعين به في التبعد عن الموضوع إيماناً مريباً جريباً وراء هذا السجع ، أو ذاك التبيان ، فإنه مما لا شك فيه أن محاولة تصيد الحروف الأولى للكلمات أو الحروف الأخيرة تقف - في غير الشعر - حجر عثرة في سبيل الأسلوب المستقيم .

هذه هي أهم الأحداث في تاريخ الأدب القصصي في هذا العهد الذي ابتداء عام ١٥٥٨م إلى ١٦٠٣م ولا شك أن القارئ لاحظ من أنني قصدت الكلام عن قصة يوفيس، ولكنني لم أقبل ذلك إلا لأن هذه القصة هي أعظم أثر أدبي لهذا العصر فضلاً عن أنها تمثل في أكثر أسلوبها الأسلوب الذي ساد ... الأسلوب الذي كان أشبه ما يكون بالطلاء اللامع الذي يخفي وراءه عيوباً كثيرة، حتى لقد سخر عميد اللغة

الإنجليزية ولم شكسبير منه إذ كان يجريه على لسان بعض أبطال قصصه البلاء الفكر

قصة جربيرة لجورج ليلي^(١)

كتب ليلي هذه القصة عام ١٥٧٩ بعد قصته الأولى بعام واحد وهي عبارة عن رواية لزيارة « يوفيس » لإنجلترا وأنحراطه في الحياة الاجتماعية الإنجليزية

- وكانت القصة ممتعة بروح المؤلف ... وتقد فيها المعاداة الإنجليزية والجامعات الإنجليزية، لا بقصد التشهير والهدم، وإنما للإصلاح ووضع القواعد الثابتة للناجحة لمساعدة الشبان الناشئين وكان يوجد بجانب ليلي بعض الكتاب الذين ساهموا بنصيب وافر في خدمة أدب القصة في هذا العصر، ومن هؤلاء كاتبنا المناسة لودج وجربن، والأخير كتب عدداً كبيراً من القصص القصيرة اقتبسها عن الإيطالية ... واشتهرت كتابته بميسم الحزن والألم؛ ولعل ذلك يرجع إلى المرض الذي عاناه والذي جعله ينظر إلى العالم بمنظار أسود، حتى لقد كتب عن هذا اليأس والحزن قصة طويلة جعل اسم بطلها « روبرت » وهو اسمه الأول

أما الكتاب الآخرون، فلم يظهروا إلى جانب من ذكرت إما لضعف أسلوبهم أو لقلّة تفاهتهم

مصطفى مشعل

الأسكندرية

(١) Euphues and His England

وكانت مفرقة لولا النصباء بما يروى عنهم من فتنة النشاط والمزاج القصبي
وعسى الميل إلى العقل، والفضل في الحياة الرومسية، فقد أشرعت على النشر والظهور معاً .
على أن القصة لم يشر إليها في الأدب إلا في وقت متأخر من القرن السابع عشر، لأن السبب
في هذا التأخر الروماني . فإذ أحرمت الجسيم كفاً من قسوة الموارد العجيبة . أظن بغير
ومن القوة الحاضرة وللأسف إلى التقدم . وكان مما أثاره صارا الأثر في الأثر من طبع
بهذه الرومانيات الخطيرة الأثر في شكل شخصيات طيبة، فيمكن طبع الرجال الذين يتكون من قادة الرومانيات في أصابعهم ان يذوقوا أنفسهم . وفيه
أكتب شخصيات لؤلؤ طيب في هذا الشأن عن صبي . لأنه أول من نشره كرسولي من صبي . ومحمد أيضاً وعملاً وفقاً للتحقق من تقاض
وتأنيب عناسي . لؤلؤ طيب الروماني ، وهذا الذي يحتاج إلى الإيضاح . في معالمة جميع الملائكة التي نشأت بها سائر الأودرة . ولعل من معرفة كل
يا شعاع بالحياة الخفية (بالضوء الروماني) بجان نطالع كتاب إلى الأبد في البرية لؤلؤ طيب الذي يمكن أن يصير عمله نظيره . لكن القصة الرومانيات المودرة
برسوم تزان ختم الوان و ... له حقه الذي ترسل طابع بربر إلى . هاتم هورسين : صندوق بوسنة ٢١٠٥ . بمصدر
أضواء .. سرية القدر في قلوبنا كشفاً بربر طابع لؤلؤ طيب . هجانا ص ب ٢١٠٥ بمصر في طلبك طابع بربر ٥ بمصر بلمات
المدى العام الحديث الذي اكتشفه المدعى الشهير الأثر ما هتمن في شكه

(سجل تجاري ٥٢٢٧)